٢ – بمناسبة (المولد) :

لا تخـــافوا . . . !

[مهداة إلى (جماعة الاخوان المسلمين)]

للأستاذ على الطنطاوى

لا تخافوا ، فوالله لا الفرنسيون ولا آل صهيون ، ولا دول الأرض كلها تستطيع أن تبيد شعباً عربياً مسلماً ، أو تذلّه فتسلبه عزّة نفسه وقوة إيمانه . فجدوا واعملوا ، ولا تدخروا وسعاً ولا طاقة ، وفتشوا عن القادة ، فإنما تنقصنا القيادة ، ولكن لا تخافوا على عرب فلسطين أو أفريقية ، ولا على مسلمى أندونسية ، فإن « محمداً » قد وضع فى دمائهم الصل الواقى من الخوَر والجبن والتهافت ، وصبّ المناعة فى أعصابهم صبًّا ، وعلمهم الصبر على المصائب وإن تتالت ، والشدائد وإن تعاقبت ، مع العمل على دفع المصائب ورفع الشدائد ، فكان الجهاد فى سبيل الله ، وبذل النفس من أجل الدين والشرف ، فطرة فى أتباع « محمد » ، وخلقة فيهم لو أرادوا الانفكاك عنها ما طاوعتهم قلوبهم !

ألا ترون إليهم كم غامروا وجاهدوا واحتملوا من الأذى ، ثم ها هم أولاء يدعون إلى الجهاد نزلة أخرى فيمسحون الدموع ، ويربطون على الجروح ، ويقومون من القبور ، ويثبون مع الداعى يأخذون الطعام من أفواه بناتهم ، والكسى من نحور صبيانهم ، ليبيعوها فيشتروا البندقية ويمشوا إلى الجهاد !

أولئك هم الأبطال حقاً ، لا أعنى الزعماء الذين يملأون بطونهم من الطيبات ، ويمضون إلى الحفلات بالسيارات ، ثم يقومون إلى المنبر لا يطيقون الوقوف من التخمة ، فيخطبون بصوت متقطع الأنفاس من البَشَم لا من الحماس ... يصرخون : نحن المجاهدون ، نحن الذين فعلوا والذين يفعلون ... ثم يروحون إلى دارهم فينامون وهم يحلمون بالمجد المؤثل الذى شادته لهم خطبهم فى الهواء !

ولا السياسيين الذين لا يعرفون من الوطنية إلا أنها أقرب الطرق إلى الكراسى ، فإن جاءت من قبل الشعب ، فهم من الشعب وإلى الشعب ، وإن لم تجىء إلا من الفرنسيس والإنكليز ، فما هم غرباء عن الإنكليز ولا عن الفرنسيس !

ولا التجار الفجار الذين يعبدون الدرهم والدينار ، والذين أجاعونا فى هذه الحرب وعرّونا ، ليريقوا ما سرقوه من ثمن خبزنا وكسوتنا على قدمى كل بغى ، وزلفى إلى كل شيطان ، فهؤلاء جميعاً ليسوا منا ، وإنا منهم لبُرءاء !

وإنما أعنى هذا الشعب الذى ثار فى غوطة دمشق ، وميادين القاهرة ، وسهول العراق ، وصحارى طرابلس والجزائر ، ورحاب الريف الأقصى ، وثار فى فلسطين من ديار الشام ، فأترع الدنيا بطولة ونبلا ...

هذا الشعب الذى خرج منه حارس أمىّ من حراس الليل إلى غوطة دمشق ، فوقف على نهر ثورا ، وما نهر ثورا ؟ جدول عرضه سبعة أمتار ... ووقف جيش فرنسا فى الشرق على الضفة الأخرى ، وبينهما جسر ، وما معه إلا فئة من الثوّار ، فلم يستطع جيش فرنسا وقائده الجنرال اجتياز هذا الجسر إلا بعد ما مات الحارس الدمشقى ، حسن الخراط[1] ، بعد ثمانية عشر شهراً كلها وقائع داميات ومعارك حاميات ، ولقد ردّ حسن وأصحابه الجيش الفرنسى مرّة حتى ألجأوه إلى دمشق ، ثم حاربوه فى شوارعها حتى أخرجوه منها إلى المزّة ، ولبثوا فى دمشق ثلاثة أيام وما فيها فرنسى واحد .

هذا الشعب الذى فرّ ضابط من ضباطه من بغداد مع ستين جندياً ، إلى الصحراء التى قطعها (خالد) من قبل والعدوّ من أمامه ، والعدو من ورائه ، والعدوّ من فوقه ، ولو وقفت عليه سيارة ، أو كشفته طيارة ، لذهب بدداً ، فقطع الصحراء ، ثم بلغ فلسطين ، ثم قاد الثورة فيها ، فظفر كما ظفر خالد بالروم ، وقذف الله به الرعب فى قلوب الجند ، فكانوا يرتجفون هلعاً ،

(١) الذى وضع أول حجر فى صرح الاستقلال ، وأول مسمار فى نعش الانتداب . فلما ذهب الانتداب . وجاء الاستقلال نسى القائمون عليه أن يبنوا لحسن الخراط قبراً ، أو يجعلوا له فى تاريخ الجهاد فى المدارس ذكراً .

وينهزمون فزعاً إذا قيل : « فوزى القاوقجى » !

هذا الشعب الذى كان يحارب ضابطاً آخر من ضباطه مع نئات من أتباعه ، جيشان أوربيان جيش فرنسى فيه مائة ألف ، وجيش أسبانى فيه مائة وخمسون ألفاً ، هؤلاء كلهم يكافئون فى الميزان الأمير المسلم عبد الكريم بطل الريف[1] .

هذا الشعب الذى قابلت حفنة منه مقاولة السلاح ، قليلة العتاد ، انكلترا ذات الحول والطول ، ومالكة خمس العالم ، وثبتت فى وجهها سنتين اثنتين ، لا يوماً ولا يومين ، وأرتها من قوة الإيمان العجب العجاب :

بين يدى الآن عدد قديم من جريدة « بيروت » صادر سنة ١٩٣٧ ، أفتحبون أن ألخص لكم خبراً وجدته فيه :

« التقى فى (حيفا) نفر من المسلمين المجاهدين فى سبيل الله ، وفرقة آلية من الجيش البريطانى ، ودارت رحى الحرب ، فهجم المجاهدون على الدبابات والمصفحات ، فكان إيمانهم أمضى من نارها وأقوى من حديدها ، فنفذ منها إلى قلوب من فيها ، فلم تغن عنهم مسدساتهم ولا بارودهم شيئاً ، وأعان الله عليهم حزبه بالرعب ، فانهزموا ، وهربت مصفحة ... فطارت على وجهها ، لا تلوى على شىء ، إلى ... أتدرون إلى أين ؟ إلى عكا ... إلى صور ... إلى صيدا ... إلى بيروت ... إلى طرابلس — إى والله — ولولا أن الأخبار سبقتها إليها حملتها الأسلاك ، فقطعوا عليها الطريق بالحجارة ، ووقفوها ، لولّت منهزمة إلى بريطانيا ! »

هذا الشعب الذى أدهش أهل الدنيا بفتوحاته غابر الدهر ، وأدهشهم بثوراته حاضره ، وسيدهشهم فى مستقبله ويدعهم مفتوحة أفواههم من عظم مايرون ، حين يثب الوثبة الكبرى ، التى يعود بها كما بدأ شعباً واحداً ، يعبد رباً واحداً ، ويتبع الكتاب قانوناً واحداً ، لا تعجبوا فتقولوا : أين السبيل إلى الاتحاد الإسلامى ؟ ! فهذه انكلترا لها خمس الأرض ، قد تفرقت بلادها فى أرجائها ، ثم إن لها ملكاً واحداً وراية ورابطة ، أفتعجز أن توجد للمسلمين نظاماً جديداً مبتكراً ، يجمع متفرقهم ، ويدنى بعيدهم ، ويصلحهم ويصلح لهم ؟ !

***

وليس الذى انتصر حسن الحراط ، ولا فوزى القاوقجى ، ولا عبد الكريم ، لأنه لا يعقل أن يغلب أفراد دولة ، ولكن الذى انتصر هو الإسلام ، ولو ثار هؤلاء لغيره ما صنعوا شيئاً ، إذ يُتركون لقوتهم وذكائهم وعلمهم ، وأعداؤهم أشد قوة وأحد ذكاء ، وأكثر علماً . الإسلام أعجوبة الدهر الباقية ، معجزة كل عصر ، فيا أيها الأغبياء الذين يجرؤون على قياس الإسلام بنزوات هتلر ، وخيالات لينين ، وحماقات كل متسلط على العقول أو البلدان ، يحسب لجهله أنه يشرع ديناً ويضع شريعة ، إنكم لفى ضلال مبين ، أين دين الهتلرية ؟ لقد ذهبت به هزيمة واحدة ، وهزيمة مثلها تذهب بباقى الحماقات التى حسبتموها أدياناً !

أما الإسلام : فهو فى ذاته قوة لايحتاج إلى قوة أتباعه ليؤيدوه بها ، بل هو الذى يؤيدهم بقوته فينصرون . ولقد تأخر المسلمون ورجع بهم الزمان القهقرى ، ولكن الإسلام نفذ من الحجب ، ولبث يتقدم . إن المبشرين ينفقون كل سنة القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ثم لا يأخذون واحداً ، حتى يأخذ الإسلام بغير مال ولا عمل تسعة وتسعين ...

الإسلام ينتشر اليوم بنفسه فى أرقى ممالك أوربة ، وفى أحط بقاع أفريقية ، والمبشرون لم يستطيعوا أن يدخلوا فى النصرانية (مسلماً) واحداً . إنهم يجمعون الجهلة من الغاربة الذين لايعرفون ما الإسلام ، فيطعمونهم ويطعمونهم ، ثم يلقون عليهم عجائب المسيح ، فإذا وصلوا إلى موضع المعجزة ، صاحوا كلهم بلسان واحد متعجبين : الله أكبر ، لا إله إلا الله !

وينزل المبشر على القبيلة فى أواسط أفريقية فيعطى ويرغب ، ويبقى سنة كاملة ، فلا يستجيب له منها إلا النفر المعدودون ، ثم يأتى التاجر المسلم الجاهل ، فينام عندهم ، ويأكل طعامهم ، فلا يأتى الشهر حتى تكون القبيلة كلها قائمة وراءه تصلى على دين « محمد » ... والمبشرون ينظرون ! !

(١) وقد نسي الناس أن يبحثوا : أين اليوم عبد الكريم ، وماذا فعل الله به ؟ !

أفتشكّون بعد هذا أن الإسلام قوة هائلة للمسلمين ؟ !

هل عرفتم الصواعق المنقضة ؟ هل رأيتم الصخور المنحطة من أعالى الجبال ، والسيول الجارفة ، والبركان الهائج ، و ... وكل ما فى الكون من قوة ؟ إنها لن تصد غضبة المسلم إذا كانت لله ولمحارمه ولدينه ! هل فيها أشد من الموت ؟ فهل يخيف الموت رجلا خرج يطلب الموت ؟ !

* * *

إن سر قوة هذا الشعب ، إنما هى عقيدة القضاء والقدر على الوجه الإسلامى الصحيح ، ولكن القادة قلما يدركون هذا السر وقلما يعمدون إلى الاستفادة منه ، لأنهم نشأوا يوم كان الشرق ينظر إلى أوربة نظر التائه فى البحر إلى المنار الهادى ، ويأخذون كل ما يأتيهم منها على أنه الحق الصراح ، فكان فيما أخذوه وقلدوا فيه بلا فهم ، مبدأ (فصل الدين عن السياسة) ، ورأوه استقام فى النصرانية ، فحسبوه يستقيم فى الإسلام ، وما درسوا الإسلام على حقيقته ، حتى يعلموا أنه دين وسياسة وأخلاق ، وأن سورة (براءة) سياسة ، أفتفصل سورة (براءة) عن القرآن ؟!

وأمر آخر ، هو أن هذا الشعب تلقى عشرة آلاف دعوة إلى البذل فى سبيل الله ، فلباها كلها ، ولكن الدعاة لم يكونوا يلبون أنفسهم فى كل حين ، وكان فيهم من يلقى كلمته لا يتصور منها إلا ألفاظها ووقعها فى الآذان ، فهى من لسانه إلى أسماع الناس ، لا من قلبه إلى قلوبهم ، فهو من أجل ذلك يدع الشعب وحده ويمضى إلى داره ليتحدث عن براعته فى الإلقاء ، وقدرته على الخطابة ، وفيهم من يريد أن يسوق الناس ويقعد ، وهذا الشعب لا يطيع إلا من يمشى أمامه ، ويشاركه سرّاءه وضراءه ، أما المترفون الذين يريدون أن ينالوا على عواتق الشعب ، ويقتنوا من مال الشعب ، فإن هذا الشعب ينكرهم ويبرأ منهم فعلى الزعماء أن يفهموا ذلك حق الفهم ، وأن يكون لهم فى رسول الله أسوة حسنة ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، يجوع كما يجوع قومه ، ويتعب كما يتعبون ، ويعمل بيده مثلما يعملون ، بنى معهم مسجد المدينة ، وحفر معهم الخندق ، وكان يسرع إلى الخطر بنفسه . وقع الصريخ مرة فى المدينة ، فخرج الناس عجلين ، فإذا هم برسول الله ، قد وصل إلى مكان الخطر على فرس عريان ، لم ينتظر حتى يسرج له ، ورجع بطمئنهم بأنه لا شىء هناك . ولقد ثبت يوم أحد ويوم هوازن لما انهزم الناس ، وكان يقول معرفاً بنفسه : أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب . لم يسق الناس إلى الموت ويقم فى قصره ، ولم يختص نفسه بما كل ولا ملبس ولا مركب ، ولم يربط لنفسه وظيفة من بيت المال ، ولم يحمل أسرته وأهله على الناس ، ولم يول عاجزاً ولاية لصداقة أو قرابة ، ولم يبعد عنها قادراً لبغض أو عداوة ، ولم يتخذ قصراً ، ولم يقم حاجباً . وكذلك كان خليفته وصاحبه أبو بكر ، وكذلك كان أمير المؤمنين عمر ، ومن أجل ذلك أجمع الناس على طاعة أبى بكر وعمر ، فلم يختلف عليهما اثنان !

أما إن هذا الشعب أقوى الشعوب روحاً ، وأطيبها عنصراً ، وأصفاها جوهراً ، ولكنه ينقصه الزعماء ، فهاتوا واحداً مثل عمر ليقوده ، وانظروا كيف يأتى بالمعجزات !

(دمشق) **على الطنطاوى**

صدر بالأمس نسختك من كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

احمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ١٥ قرشاً